منهاج جديد للتاريخ: بيتر غران

جمال واكيم*

يشكّل الكتابُ الجديدُ لبيتر غران(**) محاولةً لكسر النمطيّة السائدة في مقاربة التاريخ، وذلك في ظلّ القصور في تفسير عدد كبير من الظواهر في زمننا الراهن نتيجةً للتفكير اليوروسنتري (الغربيّ التمركز). ويعتبر الكاتب أنّ المشاكل التي يواجهها هذا النمطُ من التفكير هي بسبب إيمانه أنّ الغرب صاعدٌ والشرقَ راكدٌ، الأمرُ الذي «يجعل شعوبًا بلا تاريخ تهمِّش معظمَ شعوب العالم» (ص XII). ويعترف غران بصعوبة تحدّي ذلك التفكير الذي تمكّن من تجديد نفسه، بتعديل مفهوم هذا «الشرق» بما يتناسب مع تصوّراته، وذلك حين يبقي هذا الشرقَ راكدًا عبر عزل كوريا الجنوبيّة واليابان عنه. فوفقًا لأحد كبار مفكّري هذا النهج، وهو المؤرّخ برنارد لويس، فإنّ هذين البلدين تمكّنا من التطوّر بعدما تبنّيا مفاهيمَ القيم الغربيّة، ومن ثمّ تحديثِ نفسيهما، خلافًا للعالم العربيّ الإسلاميّ.(١)

ويؤكّد الكاتب أنّ منهاج «صعود الغرب» يبالغ في تضخيم دور كلّ ما هو غربيّ على حساب دور نُخب العالم الثالث في إنتاج النظام العالميّ الحاليّ؛ كما أنّه يبرِّر القمعَ الذي تمارسه نخبُ العالم الثالث على شعوبها بصفتها (أي النخب) الفئاتِ الاكثرَ انتماءً إلى «القيم الغربيّة» في مواجهة شعوبٍ «متخلّفةٍ» عن ركب الحداثة.

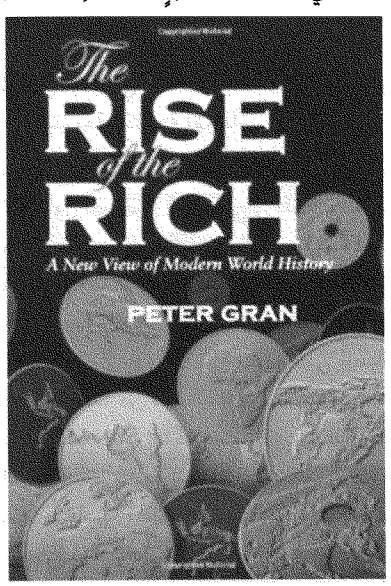

ولكنْ وفقًا لمنهاج «صعود الأثرياء،» وهو منهاجُ غران، فإنّ نخبًا متعدّدة، من مختلف أنحاء العالم، ضافرتْ جهودَها منذ القرن السادس عشر لتحقيق تراكم أدّى في النهاية إلى انطلاقة النظام الرأسماليّ كما نعرفه اليوم. وبالتالي يصبح المنهاجُ الجديدُ محاولةً أكثر موضوعيّة لتفسير التاريخ المعاصر، لكونه لا يقتصر على تاريخ غربيّ فرض نفسَه على العالم بل هو تاريخٌ عالميّ شهد دورًا قياديًّا للغرب بالتعاون مع نخبٍ من مختلف أنحاء العالم. ويعتبر غران أنّ ما أتاح البحث من وجهة نظر جديدةٍ هو صعودُ اختصاص التاريخ الاجتماعيّ، بما جعل من المستحيل تهميشَ معظم سكّان العالم عن دورة التاريخ، وبذلك أصبحت نخبُ العالم الثالث شريكة في إنتاج النظام العالميّ الجديد.

ينقسم الكتابُ إلى ثلاثة أجزاء. يتناول الجزءُ الأول الذي ينقسم إلى فصلين نظرةً نقديّةً إلى المنهاجين الليبراليّ والماركسيّ على حدّ سواء. ويتناول الجزءُ الثاني الذي ينقسم أيضًا إلى فصلين صعودَ الأثرياء منذ القرن السادس عشر وحتى القرن العشرين. أما الجزء الأخير، ويتكوّن من فصل واحد، فيركّز على تاريخ الولايات المتحدة بصفتها دولة تمثّل تجربة فريدة في التاريخ. ويعتبر الجزءُ الأول أنّ الليبراليّة، كما الماركسيّة، هما وليدتا منهاج صعود الغرب ـ وهذا يجعل استنتاجاتِ الماركسيين شبيهةً إلى حدّ كبير باستنتاجات الليبراليين من حيث تقسيمُ العالم إلى غربٍ صاعدٍ وشرقٍ راكدٍ على الرغم من أنّ للمنهاج الماركسيّ مفرداته الخاصّة (من قبيل «نمط الإنتاج الأفرو ـ آسيويّ»).

في الجزء الثاني يعالج الكاتب صعودَ الرأسماليّة المعاصرة بدءًا من القرن السادس عشر، مركّزًا على كيفيّة نشوء نخبٍ في مختلف بلدان العالم استفادت من توسّع السوق، وكيف أنّها ضافرتْ جهودها لدفع عمليّة إقلاع الرأسماليّة بما جعلها تهيمن على مقاليد الأمور في النظام العالميّ الذي خلقته. ويؤكّد غران أنّ ما أتاح للأثرياء هذا الأمر هو تبنّيها للنظام المركنتيليّ أساسًا لنظام الاقتصاد السياسيّ الذي اعتمدتْه في مختلف أنحاء العالم. ويقول إنّ المركنتيليّة أخذتْ أشكالاً متعدّدة في أنحاء مختلفة من العالم، إلاّ أنّها تميّزتْ دائمًا بقاسم مشترك وهو العلاقات الثنائيّة، مشدّدًا على أنّ نموّ مؤسّسات العلاقات الثنائيّة بين القوى التجاريّة الغربيّة وحكّام العالم الثالث هو ما

---

* ـ رئيس قسم الإعلام في الجامعة اللبنانيّة الدوليّة.

** ـ Peter Gran, **The Rise of the Rich, A New View of Modern World History** (New York: Syracuse University Press, 2009).

١ ـ Bernard Lewis, **What Went Wrong? Western Impact and Middle Eastern Response** (New York: Oxford University Press, 2002), pp. 155-159.

ميّز الفترة المبكّرة من تاريخ الرأسماليّة. ويعزو غران صعودَ الأثرياء في المرحلة الأولى إلى عامل آخر، وهو عمليّات النهب المنظّم التي مارستْها فئاتٌ كثيرةٌ في العالم، ما ساهم في المراحل الأولى من عمليّات تراكم رأس المال وأدّى في وقتٍ لاحقٍ إلى انطلاقة الرأسماليّة. وكان نهب ذهب أميركا اللاتينيّة وفضّتِها من العوامل الأخرى التي أدّت الى تلك الانطلاقة. كذلك يرى الكاتب أنّ الرأسماليّة لم تكن مجرّد نظام اقتصاديّ يدعو إلى حريّة تبادل السلع وإلاّ أصيبت بالركود لأنّ النهب كان مردودُه دائمًا أكبرَ من الزراعة والصناعة والتجارة.

بعد العام ١٨٥٠ غلب على بنية الاقتصاد السياسيّ نمط الدولة ـ الأمّة، وتراجعت المركنتيليّة. وفي هذه المرحلة واصل الحكّامُ اعتمادَهم على العلاقات الثنائيّة. إلا أنّ الأداة الجديدة التي استحدثوها كانت العلاقات المتعدّدة الأطراف؛ فهذه أتاحت فرض أسواقٍ محليّةٍ أكثر ديناميّة وتوسعًا في معظم البلدان، وبأمانٍ أكبر، ما أدّى إلى تضاعف ثروات الطبقات الحاكمة والمهيمنة. لكنّ غران يرى أنّ الأثرياء اليوم أضحوا مكبّلين ليس فقط بالدولة ـ الأمة كنظام اقتصاد سياسيّ، بل أيضًا بالرأسماليّة كنظام اقتصاديّ: فالرأسماليّة لم تعد تستطيع تنمية آليّات توزيع الثروة، وباتت قاصرةً على تحقيق تراكم الثروة و تركيزها، ما جعل الأثرياء يصلون إلى حدود نموّهم القصوى؛ أما الدولة ـ الأمّة فبات وجودُها يعوّق نموّهم كطبقة موحّدة لأنّ التناقضات بينهم ستستمرّ ما دامت هذه الدولة ـ الأمّة قائمة.

ويجد غران أنّ الاتفاقات الثنائيّة تساعد في فهم تعزّز العلاقة بين النخب الثريّة منذ بداية انطلاقة الرأسماليّة. فهنا نجد دليلاً على اتصال نخبةٍ مهيمنةٍ في إحدى أنحاء العالم بنخبٍ أخرى تحاول كلٌّ منها فرض إرادتها على رعاياها وعلى النخب المحليّة المنافسة لتدعيم مصالحها الخاصة، في الوقت الذي تحافظ فيه على «مظهر» حماية مصالح شعوبها. ففي الشرق الأوسط مثلاً، فإنّ النمط الذي يطرحه غران ويقسّم بموجبه العالمَ إلى أربعة أنواع من الهيمنة (ورد ذلك بشكل أوضح في كتابه السابق[1]) يزيل الحدود بين قوى الهيمنة في الشرق والغرب ويحلّ قضيّة الاستشراق عبر طرح أزمة الشرق الأوسط بشكل أكثر ترابطًا.

بعد العام ١٨٥٠ تدعّمت الرأسماليّة خلال المرحلة الكولونياليّة، إذ قامت النخب الحاكمة بتوسيع اقتصاد السوق. كما شهدتْ هذه المرحلة تزايدًا كبيرًا في الاتفاقات المتعدّدة الاطراف، وهذا ما جعل النخبَ الحاكمة في العالم تجد نفسَها في وضع أكثر ملاءمةً للسير في نظامٍ يعْلي مصالحَها على حساب مصالح شعوبها. ويرى الكاتب أنّ هذه المرحلة شهدت استمرارَ حركات مناهضة النخب المهيمنة، فضلاً عن نشوء حركات جديدة، ولاسيّما تلك التي تمثّل الطبقةَ الوسطى الساعية إلى الاندماج في النظام والحفاظ على مصالحها. كذلك شهدتْ هذه المرحلة تصاعدَ نضال الطبقة العاملة. لكنّ نضال الطبقتين هُزم في النهاية، وقد باتتا الآن أكثر ضعفًا ممّا كانتا عليه قبل خمسين عامًا.

أما في الجزء الثالث فيختبر غران منهاجَه على الولايات المتحدة التي تُعتبر المستفيدَ الأكبرَ من منهاج «صعود الغرب،» ليثبت أنّ منهاجَه أكثرُ دقّةً في تفسير ظواهر كثيرةً فشل المنهاجُ الكلاسيكيُّ في تفسيرها، وخصوصًا التاثيرات الخارجيّة على الداخل الأميركيّ سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا عبر مجموعات الضغط المرتبطة بالخارج، وذلك على حساب الطبقات الأميركيّة الوسطى والفقيرة. وبالتالي فإنّ النخب المهيمنة في العالم الثالث ليست مجرّد طبقات كومبرادوريّة كما يدّعي أتباعُ المنهاج الكلاسيكيّ، بل طبقات تملك نفوذًا كبيرًا عبر مجموعات الضغط. وهذا قد يفسّر التحالف القائم بين عائلتيْ بوش في الولايات المتحدة وعائلة بن لادن في المملكة العربيّة السعوديّة ونفوذ اللوبي «السعوديّ في الولايات المتحدة.»[2]

ويشير غران إلى أنّ معظم أتباع منهاج «صعود الغرب» يؤكّدون أنّ العالم يتّجه نحو الثورة، إلاّ أنه يلاحظ أنّ النخب الحاكمة في العالم لا تشاطرُهم الرأيَ: فهذه، منذ الثمانينيّات، تَحكم عبر قوانين الطوارئ، بما في ذلك الولاياتُ المتحدة نفسُها منذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١ بذريعة مكافحة الإرهاب.

إنّ هذا الكتاب، بمحاولته طرحَ منهاج جديد لفهم التاريخ المعاصر، لا يحاول تصحيحَ القصور في المنهاج التقليديّ القائل بصعود الغرب وضمور الشرق لفهم التاريخ، فحسب، بل يشكّل أيضًا مقدّمة لفهم العلاقة القائمة بين النخب الحاكمة في المنطقة العربيّة ـ الإسلاميّة والعالم الثالث من جهة، والنخبِ في العالم الغربيّ من جهةٍ أخرى، وهي علاقة قائمة على مصالح متبادلة أكثرَ منها علاقةَ عمالةٍ من قِبل النخب الحاكمة في العالم الثالث للدول الغربيّة. كذلك فإن الكتاب يشكّل مدخلاً جديدًا لفهم الأسباب البنيويّة التي أدّت إلى فشل النخب الحاكمة تلك في تحديث بلدانها سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا، وكذلك لفهم الأسباب التي أدّت إلى فشل النخب المنادية بالتغيير (كالأحزاب القوميّة واليساريّة على حدّ سواء) في طرح بديلٍ ناجعٍ للنخب السائدة.

بيروت

١ ـ Peter Gran, **Beyond Eurocentrism, A New View of Modern World History** (New York: Syracuse University Press, 1996).

٢ ـ ملاحظة مراجع الكتاب